ذهب متأثراً بروح بيئية جعلته خلال إقامته أسير الإقدام والإحجام، ورهين أوهام طالما سخر منها أصدقاؤه الفرنسيون حسب تصريحه هو نفسه. لقد كانت هذه الروح واحداً من أسباب الجنوح الشاذ لدى الرومانسي الحكيم. حتى إذا ما عاد الكاتب إلى بلاده متشبعاً بروح حديدة، وبنظرة جديدة إلى الكون، نظرة تجعل من الفن وتذوقه محوراً لا يمكن للإنسان الحقيقي أن يتجاوزه. نقول: حتى إذا ما عاد بتلك الروح الجديدة صدمه الواقع الاجتماعي الفاجع الذي كانت تعيشه بلاده بما فيه من تخلف وأمية وانحطاط، حتى أنه عبر عنه أكثر من مرة بأنه يكاد يكون «ضرباً من المجتمعات الحيوانية التي لا مكان فيها لإنسانية الإنسان[69]». والذي ضاعف من راوية الفاجعة لدى الحكيم هو تضاعف رهافته الحسية التي قرر أن يغديها بالفن الذي كان يعد «باريس» كعتبة له في بلاد الغرب.

وهكذا كان الرفض لدى الحكيم ـ والرفض بمثل أحد الأسباب الرئيسية للعزوف الرومانسي في الأدب. فهل كان رفض المرأة جزءاً من رفض الواقع الاجتماعي؟ لقد عاش الحكيم دوماً في عالم المثل وحاول في مؤلفاته طرح القضايا الإنسانية الشاملة، وكان يتجه في ذلك إلى فرضين: أولهما الابتعاد من العالم الأرضي الذي لا يمثل إلا الدنس والشرور، وثانيهما تصوير النقيض الذي يمكن ـ ويجب ـ أن تتجه نحوه مسيرة الحياة.

وقد حسدت نظرة الحكيم إلى المرأة مجموع هذه النظرة الرومانسية إلى العالم. فإذا كانت عوالم الحكيم من النوع الذي لا يوجد إلا في الملكوت السماوي، فإن المرأة التي يجسدها لا توجد إلا في عالم الفن. إنها تظل دوماً السر الذي نسعى وراءه دون أن نصل إليه، وهي الجمال العلوي الأسمى الذي لا يعرف سره وأعماقه غير الفنان.

* * *

وختاماً، فإذا كان توفيق الحكيم قد استفاد من ألمه فتسامى به إلى الخلق الأدبي، وإذا كان توفيق الحكيم يعتقد بأن الألم يعطي الفن، فهل يسري ذلك